صوفيات عبر الحياة

بقلم: الدكتور
مصطفى كمال وصفى

تدبر وتأمل وتعبير :

ليس غريباً أن يكتب الصوفى مايتأمله ويتدبره عبر الحياه . فالصوفية بطبيعتهم أهل نظر وأهل تدبر وتأمل . والنظر والتدبر والتأمل منه أعلى العبادات ، ولذلك نرى الصوفية جميعاً — أعنى الصوفية الحقيقيين الأصلاء — أهل إحساس وذوق وشعور وتفكير .

وكم من آيه تمر بها النفوس المغلقة الصادئة ، فلا تحس بها ، بينما اهتزت لها نفس أخرى جياشة مرهفة الحس .

ولا تشعر النفوس المغلقة بهذه الآية إلا إذا شرحت لها الأخرى المرهفة الحساسة ماتثيره هذه الآية من مشاعر ، ونقلت إليها أفكارها وآراءها فيها بطريقة تنفذ إلى تلك النفوس . قد يكون ذلك شعراً أو نثراً بديعاً وبياناً وسجعاً وقولا مأثوراً ، وقد يكون ذلك بالتجسيم أو بالألحان أو بالتصوير أو بالحركات أو بأى وسيلة تعبيرية تجعل الذين لا يشعرون ، يشعرون .

ولكن أليس هذا عمل الفنان ؟ فهل للصوفية فنانون ؟

بهذا المعنى الواسع ، نعم . وفنهم هو الشعور بالله وتدبر آياته ومجاليه ، وطريقة تعبيرهم هى الحجة الدامغة البيان الأخاذ والثبات بالإيمان لكل شىء . . بل قد يهز الوجد فيهم شعراً منظوماً أو لحناً رائعاً فياضاً .

ولكن هل الفنانون صوفية ؟

أقول لهم استعداد كبير لذلك . ومن استقامت مرآته منهم إلى السمت الأعلى

كان صوفياً عنيفاً . ولا شك أن أخلد آيات الفنون فى كل البلاد فى التصوير والنحت والعمارة والشعر واللحن والقصة ، بل والرقص فى بعض الأديان . . كل ذلك نشأ هم المعابد ، كانعكاس لومضات العبقرية الصوفية .

إن العبقرية هى ظاهرة قوة الروح .

والعبقرية هى سرعة الإحساس الصادق ، قوة خراج ماينبىء به هذا الإحساس وكل سلفنا الصالح كان عبقرياً قوى الروح .

المتحجبة والسافرة :

مفارقة مر بها الصوفى ، واصطك بها وجدانه ؛

امرأة محجبة ، تصحبها أخرى سافرة .

المتحجبة — كما لا يخفى حجابها — عجوز دميمة ينتصب أنفها من وراء الحجاب مدبباً كمنقار الغراب ، وتنفذ من إحدى عينيها نظرات ثاقبة لا تطرف كطلقات الرصاص . وتتلفت حولها فى حركات خشبية سريعة — كحركات الدمى — لتنظر أثر جمال رفيقتها فى النفوس .

والسافرة — غادة أخاذة بهية الجمال . ضاحكة ناعمة لاهية .

قال الصوفى لنفسه :

ما أولى السافرة بالحجاب وما أجمله لو اتخذته ، وما أتفه ما تحجبه الدميمة بحجابها . .

أوكلما رأينا متحجبة كانت دميمة لا يستلزم قبحها غطاء ؟ ألا من جميلة متحجبة ؟ .

وهز الصوفى رأسه وهو يذكر مختلف ما يتحجب به ذوى الحجب ومايضيق به وتبرم منه المحتاجون للحجاب . .

ما أغنى كثيراً من الناس عما يتظاهرون به من حلم أو تواضع وتلطف ماداموا محتاجين وعاجزين ، وما أقبح ما يظهرونه من زهد وتعفف ، ما داموا محرومين مقطوعين .

«يتبع»